

أصول التعليل عند الخليل (مقاربة منهجية)

رشيد حليم

قسم اللغة العربية وآدابها - كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة باجي مختار - عنابة - الجزائر

يعد علم اللغة^(١) جزءاً من المعرفة الإنسانية^(٢) ويعد علم النحو^(٣) قاعدته الركينة، حيث يطمح إلى إقامة بناء شامل للظواهر اللغوية^(٤)، كما يسعى إلى إبراز ما للقواعد التركيبية من سلامة ووجاهة.

ولقد أيد اللغويون منذ القدم فكرة البحث عن مجموع العوامل التي تستقر خلفها تلك الظواهر اللغوية^(٥).

وكان لعلماء العربية منذ القدم إحاطة بهذه المعرفة، فسعوا إلى تأصيل قواعدها وبناء أصولها، وكان مبتغاهم الأصيل البحث في أفانين العربية عامة وعلم النحو خاصة^(٦)، وانصب اهتمام هؤلاء العلماء على دراسة النحو، وركزوا على منهجه، وجاء تركيزهم بحثاً وتظهيراً على منهج العلة كنواة رئيسة تسهم فيها العلوم جميعها، دون إقصاء لعلم النحو أو غيره.

ولقد بنوا مبحث العلة على خطوات سليمة، ظلت شامخة لا يغفل جديتها دارس، ولا يغمط أهميتها باحث، وظل هذا المبحث من أعرق الأصول المنهجية التي وُطن بها علم العربية، ورسخ بها نظرياته، ذلك أن سلامة الأداء اللغوي في العربية وغيرها لا ينسجم إلا بصحة القاعدة وسلامتها، والقاعدة الصحيحة تستخلص بتوظيف الدليل العلمي والبرهان العقلي، ومن ثمة تلازمت هذه

(١) اختلف الدارسون العرب في صك مصطلح مشترك لهذا العلم الذي عرف بالفرنسية «Linguistique» وقد آثرت استعمال مصطلح علم اللغة.

(٢) د. محمود السمران، علم اللغة، مقدمة للقارئ العربي، طبعة دار الفكر العربي، ط ٢، القاهرة، ١٩٩٧، ص ١٥، المقدمة.

(٣) د. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، طبعة عالم الكتب، ط ٣، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٧٨.

(٤) تتمتع بمستويات مختلفة وتمر على مسارات متنوعة ومتداخلة وذات إسقاطات تراتبية وترابطية في الوقت نفسه.

(٥) د. حلمي خليل، مقدمة لدراسة فقه اللغة دار المعربة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٥م، ص ١٠٩.

(٦) لم يفرق كثير من القدامى بين النحو والعربية.

الأشياء، فالقاعدة مرتبطة بالنحو، والنحو مرتبط باللغة، واللغة مرتبطة بالفكر، والفكر متصل بالواقع، والواقع يقوم على التقنين والتفعيد لأن أساسه الانتظام، وفي هذه المتواليات يؤكد أحد منظري العلل أن النحو علم قياسي ومسبار لأكثر العلوم لا يقبل إلا براهين وحجج^(١).

وشاء للدرس اللغوي العربي إذاً أن يتأسس - كغيره - على مبادئ النظر وأسس التبرير، ويتميز علمائه بأنهم معلون^(٢)، ويغالبهم هذا المنحى حتى عم على الفكر النحوي قاطبة. فلن يتسنى استنتاج الأحكام دون بسط التعليل، ولن تستقيم النتائج دون استقامة الدليل. وأصبحت هذه الأساليب الذهنية ملجأ النحاة ومقاصدهم لتمكنهم من تفسير الظواهر اللغوية الخفية، والتدليل على ما يتحکم في ضروب المعطيات اللغوية من تناسق وانسجام.

٢ - المدونة العلمية:

إن الناظر في تراثنا العربي وفي هذا المجال خصوصاً تستوقفه وثيقتان علميتان ورد فيهما حديث مستفيض عن المعرفة المتعلقة بالتعليل اللغوي. وتتسبب هاتان الوثيقتان إلى الخليل بن أحمد (ت ١٧٥هـ)^(٣) أعظم رجل بحث

(١) الزجاجي أبو القاسم (ت ٣٣٧هـ)، الإيضاح في علل النحو، تحقيق مازن المبارك، ط٥، طبعة دار النفائس، بيروت، ص ٤١.

(٢) د. عبده الراجحي، النحو العربي والدرس الحديث بحث في المنهج، دار النهضة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٨٠.

(٣) لقد ترددت أخبار قليلة تتحدث عن أسرة الخليل فقد ذكر أن والده أحمد كان أول من لقب بهذا الاسم، بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) تيمناً به وتلميحاً إلى منزلة هذه الأسرة الشريفة حيث ترعرع الخليل على مائدة حب أهل البيت وقد قيل: «كان أهل العربية على عهد هذه الطبقة كلهم أصحاب أهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة: أبو عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب البصري، والأصمعي» وتجلت عقيدة الخليل في عفته وظلّفه فقد أقام في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلس وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال. ينظر: كتاب سيوييه، تحقيق عبدالسلام هارون، طبعة دار الكتب العلمية، ج ١، ص ١٢.

في الدرس اللغوي العربي، ونعتمد أيضاً أن الوثيقتين هما أقدم ما وصلنا في التععيد لأبواب التعليل، وأعظم مساهمة في التنظير لمبادئه.

أما الوثيقة الأولى: فهي كتاب سيبويه (ت ١٨٠هـ) وهو كتاب عظيم في مسائل اللغة. كان لسيبويه الفضل الأكبر أنه جمع واستوعب وسجل، وأما الخلق والابتكار فقد كانا من نصيب الخليل في الأعم مما اشتمل عليه كتاب سيبويه^(١). فكان الخليل الأساس الأول في نشأة الحركة النحوية^(٢).

وذهب أحد اللغويين المحدثين إلى أن أول من شاهدنا في أثره النحوي استعمال مصطلح النحو هو الخليل، وذلك في قوله مادحاً أستاذه عيسى بن عمر: **بطل النحو جميعاً كله غير ما أحدث عيسى بن عمر** وقد تميز الخليل بسعة الاطلاع على علوم العربية واللغة على حد سواء: «فإن دوره في بناء النظرية النحوية يضعه في منزلة بين النحاة لم يبلغها أحد قبله ولا أحد بعده»^(٣).

وثاني هاتين الوثيقتين ذلك الحديث المطول الذي أورده صاحب (الإيضاح) وقد نسبه إلى الخليل بن أحمد^(٤)، ولم نعتز - فيما وقع بين أيدينا - من أنكر نسبة هذا النقل الطويل وقائله: الخليل بن أحمد؛ ولذلك أشار العلماء القدامى إلى فضل الخليل في إرساء علم النحو واستخراج قواعده، فقد ألمع أحدهم منبهاً بجهود الخليل في علم اللغة عامة وعلم النحو خاصة، ومنهج

(١) د. تمام حسان، الأصول، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٢٣٧، ٢٥٨.

(٢) د. عبدالفتاح دجني، أبو الأسود الدولي ونشأة النحو العربي، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٤م، ص ٦٣.

(٣) السيوطي، جلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، المزهرة في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق مولى جاد الحق بك ورفيقه، ج ١، ص ٤٠١.

(٤) الإيضاح في علل النحو، ص ٦٥، ٦٦.

التعليل أخص فقال: «والخليل بن أحمد لا يُنكرُ فضله في استنباط ما لم يسبق إليه من علم العروض وعلل النحو»^(١).

ومما يستحسن الإشارة إليه أن الوثيقتين شملتا حديثاً متخصصاً عن العلل، وبعبارة أخرى أن الوثيقتين دلّتا على أن العلل كانت كامنة ضمنية، فأخرجها الخليل وجسمها مصرحاً بها، مفصلاً القول فيها. ومما يمكن أن نستخلص من النصين المذكورين: أن للخليل فضلاً كبيراً في تعليل القواعد التي صاغها أو أوردتها، ثم إن كلام الخليل يدل على أن العناية بالعلل لم تكن مجرد بوادر أو طفرات في عصره، بل إن الحديث عنها تجاوز ذلك الطور، فنشأ جدالاً تناول سداد ووجاهة هذا النوع من العمل النحوي وصحة التفكير فيه. ومن جهة أخرى تضمن تلميحاً إلى غاية النحوي من التعليل حيث تتضح معالمه، وتستبين سبله، إنه يسعى إلى وضع تفسير شامل لما نسميه اليوم نظام اللغة^(٢).

والم تأمل في كتاب سيبويه يلاحظ تركيز الخليل على الأبواب اللغوية محاولاً أن يبرز نصيبها من التعليل، ويخلص إلى استنتاج يطمئن العقل إليه، ومفاده: أن التعليل ظاهرة ثابتة مستقرة راسخة في الكتاب.

وأما النص الوارد في إيضاح الزجاجي المنسوب إلى الخليل ففيه تصور الخليل للعلة على أنها بناء كامل وصرح شامل متماسك العناصر، مؤتلف الأجزاء، محكم الصياغة، منسجم الأعضاء والأقسام، لكل قسم من أقسامه غاية ولكل عنصر من عناصره سبب وهدف.

قال الزجاجي (ت ٣٣٧هـ): «وذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد

(١) الأنباري: كمال الدين أبو البركات (ت ٥٧٧هـ). نزهة الألباء في طبقات الأدباء،

تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة الأندلس، بغداد، ١٩٧٠م، ص ٤٥.

(٢) العربية معناها ومبناها، ط ٣، طبعة عالم الكتب، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٧٨ وما بعدها.

رحمه الله - سئل عن العلل التي يعتل بها، فقيل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك فقال: «إن العرب نطقت على سجيته وطباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها علة، وإن لم ينقل ذلك عنها، واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما علته منه، فإن أكن أصبت العلة فهو الذي التمسست. وإن تكن هناك علة له فمئلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام، وقد صحت عنده حكمة بانيتها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللاتحة، فكما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها قال: إنما فعل هذا هكذا لعله كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا؛ سنحت له وخطرت بباله محتملة لذلك، فجائز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعلة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجائز أن يكون فعله لغير تلك العلة إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون علة لذلك، فإن سنح لغيري علة لما علته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعلول فليأت بها»^(١).

وهاتان الوثيقتان تشيران إلى واقع عمل الخليل في بسطه لمفهوم العلة؛ حيث تنعطف إلى المعنى الشامل العام الذي كان بعض المتقدمين يريدونه من الأسباب الداعية إلى تلك الأحكام وهذا في حقيقته يُنبئ عن واقع منهج الخليل، ومن جهة أخرى يدلنا على المفاهيم العامة للتعليل ومنطقاتها الأساسية عنده؛ حيث لم يحد الخليل - كما تفيد النقول - عن سنن البحث العلمي الأصيل الذي يبدأ بملاحظة الظواهر، التي يشتمل عليها موضوع بحثه، وأن يصنف هذه الظواهر ثم يحاول أن يستظهر القانون الجامع الذي يفسر هذه الظواهر أيضاً، وعلى يده تكامل منهج البحث وتحددت أدواته ومذاهب التحقيق فيه، وكثير من أصول منهجه قد أبان عنها خالفوه من النحويين كما استظهروه من تدبر كلامه،

(١) الإيضاح في علل النحو، ص ٦٥، ٦٦.

كيف لا؟ وهوسيد العرب وعلماؤها وكاشف قناع القياس في عمله ودرسه^(١). ولا يكون الخليل إلا كذلك فهو الغاية في بحث مسائل النحو، وبلغ في مبحث العلة مبلغاً عالياً حتى أدرك دارسو العربية من بعده أنه هو الذي بسط النحو وسهّل غاياته في تصحيح أقيسته وتعليل مسالكه واستخلاص أحكامه^(٢).

وهذا المنهج التعليلي الذي تصوره الخليل وامتد في أعمال جمهور من النحاة، منهج مستمد من طبيعة الهدف الذي يرمي إليه البحث النحوي، وهو استنباط جملة القواعد والقوانين التي تحكم لغة العرب في صياغة ألفاظها المفردة وصياغة الجمل أو التعابير المركبة التي تؤدي معنى يكون مقصوداً إليه. ومثل هذه الأمور التي أخذ فيها الخليل بهذا المبدأ جاءت مطابقة لما ثبت في الدراسات اللغوية الحديثة، وتجلت فيما انتهى إليه المحققون من علماء اللغة المحدثين، وهو ما يؤدي بنا إلى القول: إن منهج العلة الذي قعده الخليل يصلح أن يكون قانوناً شاملاً لجميع اللغات. وفي هذا نلمح تجليات عبقرية الخليل الفذة التي نبه عليها السيوطي عندما قال: «إن الخليل أعلم الناس وأذكاهم وأفضل الناس وأتقاهم»^(٣).

٣- طابع التعليل عند الخليل:

ولقد تميز طابع التعليل عند الخليل بعدة خصائص نذكر منها على سبيل المثال:

أ- التعليل الفطري:

لقد قضت النظرة العلمية الموضوعية لل خليل أن يتصور أن أوضاع كلام العرب جاءت - في معظمها - على ما تقتضيه الحكمة

(١) الخصائص، تحقيق محمد علي النجار - طبعة دار الكتاب العربي، ج ١، ص ٣٦١.

(٢) د. منى إلياس، القياس في النحو، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، ص ٢٢.

(٣) المزهري في علوم اللغة وأنواعها، ج ١، ص ٤٠١.

الطبيعية لنفسيتهم وفطرتهم السليمة، فكان ينطلق في تعليلاته من الكلام العربي، وما كان يدور في خلجات نفسه؛ حيث كانت آراؤه مستمدة من حسه وخبرته بنفسية العربي بعيداً عن حقائق الفلسفة وقضايا المنطق؛ حيث لم تكن بلغت أشدها بعد فيكون لها في النحو أثر وفي تفكير النحويين سبيل^(١).

ولم يخرج في تعليله على ملاحظة الظواهر ومتابعتها، وهو الأصل الذي يقوم عليه التعليل في العلوم قاطبة، وهو أنه إذا ما اقترنت ظاهرتان وجوداً أو عدماً فإنهم يعتبرون إحدى الظاهرتين علة وسبباً للأخرى.

وهذا المنحى الطبيعي الذي سلكه الخليل بارز في تحليله؛ إذ يعتقد أن التعليل مركزوز في طبائع العرب، معروف بالمنة فيهم دون ملحاة، أما مهمته فتقتصر على تبرير طرائق التركيب والتدليل على وجود تلك الأبنية الوظيفية في الكلام وتعليلها بما يتلاءم وحقيقة مظاهرها، وتلك هي الطريقة الشكلية في متابعة الظواهر، أو الخطوات الوصفية في صلب التحليل اللغوي مع ما يضمنه العمل العلمي من التجرد والموضوعية^(٢).

ب- إن كثيراً من الاعتلالات التي اعتل بها إنما يومئ إليها إيماء، ثم يستخرجها من كلامه من تهيأ له النفاذ إلى ما أراد من النحاة، وربما أقاموا أحكاماً على علل لم يشر إليها، فتستخرج من قبل المذكورين من بعده من التأمل في أعطاف كلامه، وقد نص على ذلك صراحة ابن جني عندما أشار إلى أن العلل تستنبط من كلام من كانوا يشافهونهم من ذوي الطباع اللغوية الصحيحة

(١) د. أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند الهنود وأثره على اللغويين العرب، طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٧٢م، ص ١٢٧.

(٢) د. حنفي بن عيسى، محاضرات في علم النفس اللغوي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص ٥٣ وما بعدها.

من الأعراب، وذلك بالنظر والتأمل في طريق بنائهم للأحكام وإن لم يكن هو نفسه قد صرح بالأصول والعلل التي بنى عليها تلك الأحكام، وفي هذا يؤكد ابن جني «وإنما مكنت القول في هذا الموضوع ليقوى في نفسك حسّ هؤلاء القوم، وأنهم قد يلاحظون بالمنة والطباع ما لا نلاحظه نحن عن طول المباحثة والسماع، فتأمله فإن الحاجة إلى مثله ظاهرة»^(١).

وهكذا كان النحاة اللاحقون يرون أن ما اعتل به الخليل ورجال طبقتة إنما هي علل لغوية صرفة، مدارها على أسباب لغوية بينها الحس قبل أن ينفذ إلى إدراكها الذهن، وتجري في أكثرها مجرى القوانين اللغوية المستمرة التي تتفرع عنها كثير من الأحكام التي تتخذ شكل قوانين مطردة.

ج- التعليل العقلي:

نؤكد بادئ ذي بدء أن الثقافة العربية في مراحلها الأولى ليست خلواً من النظر العقلي ما دامت تحتكم إلى النصوص، وكان النشاط الثقافي العربي والإسلامي يجعل الاجتهاد أصلاً من أصوله عند تعذر النص الواضح، وكان لا بد لهذا الاجتهاد أن يقوم على أصول وقواعد.

ولقد كان للمنحى العقلي الذي تبناه علماء الفقه خاصة أتباع أبي حنيفة الأثر العظيم في بروز التيار الاجتهادي في تخريج الأحكام، وقد كان الخليل من أنصار هذا المذهب.

لجأ الخليل إلى التعليل العقلي مستمداً إياه من ثقافة عصره وظروف بيئته، كما يعد الخليل في ذاته حلقة انتقال إلى التعليل بالرأي والجنوح نحو الاجتهاد الفكري الذي ميزه منهج الكلاميين ففتح باب التفرع والتخريج في مسالك العلة بسبب اعتداده بسلطان العقل، ونقل البحث إلى مرحلة التجريد، فخرج به إلى

(١) الخصائص، ج٣، ص٢٧٦، وينظر: المزهري، ج٢، ص٤٩٦.

منهج الغائية الذي هو سبيل المتكلمين، ولا ريب في ذلك فالخليل نفسه كلامي^(١). وعلل الخليل بعض الأحكام بعقل عقلية، وخرج بعض القواعد تخريجات مبنية على الذهن والإدراك، وذلك عندما يتعلق الحكم بمعقولية الكلام، وما جاء به من وجوه التعليل التجريدي في هذا الجانب لا مغزى فيه من جهة أنه فرض لاعتبارات عقلية بحثة فرضت على اللغة؛ من ذلك ما حكاه سيبويه عن الخليل في مسألة العطف على ضمير الرفع المتصل وضمير الرفع المستتر في باب: (يحسن أن يشرك المظهر المضممر فيما عمل فيه، وما يقبح أن يشرك المظهر المضممر فيما عمل فيه)^(٢).

وهذا التعليل المبني على إعمال الرأي أساسه الاجتهاد ويمكن أن ندخله في عملية النظم اللغوي بصفة عامة، تلك الفكرة التي استلهمها عبدالقاهر الجرجاني (ت ٤٧٧هـ) في كتابه دلائل الإعجاز.

د - أصناف العلل:

الناظر في مسألة العلل التي جاء بها الخليل بن أحمد والتي تستنبط من كتاب سيبويه، يرى أنها شاملة، وقد غطت مستويات الدرس اللغوي المعروف اليوم: (الصوت، والصرف، والنحو والدلالة)، كما يخلص إلى استنتاج علمي مطمئن مفاده: أن تعليل الخليل ظاهرة مستقرة ثابتة في الكتاب، وتتردد في كل باب كما تتردد في مؤلفات المحققين من بعده.

وما يعيننا من ضروب التعليل التي صاغها الخليل لبناء قواعد العربية وتبرير أحكامها أن نحاول تقريب تنظيره المنهجي في هذا المجال وما جدّ من

(١) د. مهدي المخزومي، مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، ط ٢، طبعة دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٨٦م، ص ٤١.

(٢) سيبويه: أبوبشر عثمان بن قنبر (ت ١٨٠هـ)، الكتاب، تحقيق عبدالسلام هارون، ط ٣، طبعة عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣م، ج ١، ص ٣٩١.

أبحاث لسانية حديثة وجادة، إذ نستبين في بعض تعليقاته ملامح الطريقة الوصفية، فكثيراً ما كان يقرر القواعد ويؤسس الاستنتاجات على ضوء ما يسمعه، أو ما يجمعه، وكيف لا يكون كذلك وهو أحد جماع اللغة ورواتها، فقد بنى بعض الأحكام على أسس تفريرية محضة، لا مكان فيها للمعايير المفروضة من خارج الواقع الحقيقي للغة المستعملة.

والحقيقة، فعند نتبعنا لبعض تعليقاته التي سمينها تجاوزاً وصفية وجدناها قد أقيمت على ملاحظة طرائق التوظيف الفعلي للعربية من جهة، وعلى قواعد تنظيم العبارات والتراكيب من جهة ثانية، وهما القضيتان اللتان سنركز عليهما في هذا التحليل.

١- التعليل الصوتي:

يعتبر الخليل من أوائل علماء العربية الذين التفتوا إلى فكرة التعليل الصوتي^(١)، وتمكن من بلورة وظيفته وتجليه صورته، فقد لاحظ ذلك التفاعل بين الحروف والكلمات وما لهذا الانسجام من أثر في الاستعمال^(٢).
ويطلق على هذا التفاعل الصوتي بالتمائل الذي يسببه التمازج بين الصورة الصوتية والحدث أو الفعل، وهو بذلك يؤول إلى وجود علاقة طبيعية موحية بين الصوت وقيمه اللغوية والبيانية^(٣).

(١) التعليل الصوتي: نعتقد أن أول اعتلال صوتي تجلى عند الخليل عند بنائه لأول معجم عربي الموسوم «بالعين» علل فيه ترتيبه وتنظيم حروفه حسب مخارجهم مقتعاً من صوت العين هو أبعد صوت في المخرج الحلقى.

(٢) الخصائص، ج ٢/ ص ٢٥٢ وما بعده.

(٣) وهذا ما يؤكد أن اللغة نشأت عن طريق المواضعة أو المحاكاة الصوتية أو الممازجة الطبيعية بين الدال والمدلول، وقد أشار السيوطي إلى ذلك في باب سماه «المناسبة بين اللفظ ومدلوله»، وضرب مثلاً في كلمة سئل عن معناها أحد الرجال (عباد بن سليمان) وهو معتزلي، وهذه الكلمة هي: (أدغاخ) -فارسية تعني الحجر- فقال: أجد فيها يبسا شديداً وأراه الحجر، ينظر المزهري في علوم اللغة، ج ١، ص ٤٨.

وقد بذل ابن جنّي جهداً حميداً، ذلّل لنا رؤية الخليل^(١)، وساهم في توضيحها في باب سماه: «إمسّاس اللفظ أشباه المعاني»^(٢). واستهل حديثه بإشادة وفخر بما اكتشفه الخليل في هذا الموضع الشريف، وهذا المبحث الطريف، يقول ابن جنّي: «اعلم أن هذا موضع شريف لطيف، قد نبه عليه الخليل وسيبويه، وتلقفته الجماعة بالقبول له، والاعتراف بصحته»^(٣). قال الخليل: كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومداً، فقالوا: صرّ، وتوهموا في صوت البازي تقطيعاً فقالوا: صرّ صرّ^(٤). وهذا التعليل الصوتي يطلق عليه مصطلح: «Onomatopie» أي المجانسة بين الشكل والحدث.

وتعليقات الخليل في المجال الصوتي كثيرة ومتداخلة لا تتأى كثيراً عن فهم الوظيفيين لما يحدثه اختيار الفونيمات من دلالات متغيرة^(٥). ومن تعليقاته الموضوعية التي استخلصها من فهمه لطبيعة المتكلم العربي وإدراكه لسحر العربية التي تجنح كغيرها طواعية للتخفيف بالإعلال وبالإبدال. وقد مثلنا من صور هذه البدائل تمثيله للإعلال في ما رواه سيبويه عن أستاذه، سجله في باب الإضافة إلى فعيل وفُعيل من بنات الياء والواو التي الياءات والواوات لاماتهن وما كان في اللفظ بمنزلتهما.

(١) د. صبحي صالح، دراسات في فقه اللغة، ط ١١، طبعة دار العم للملايين، بيروت، ١٩٨٦م، ص ١٤٨ وما بعدها. وهذا فتح كبير في أبحاث فقه اللغة ذلك أنه يؤسس - كما نرى - لنظرية لغوية عربية شاملة تستحق المتابعة والدرس.

(٢) الخصائص، ج ٢، ص ١٥٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) سليم بابا عمر، وباني عميري، اللسانيات العامة المبسرة، الجزائر ١٩٩٠م، ص ٧٣، هـ ١.

يقول سيبويه: «وسألته- يقصد الخليل- عن الإضافة إلى حيّة فقال: حيويٌّ؛ كراهية أن تجتمع الياءات والدليل على ذلك قول العرب في حية بن بهدلة، حيويٌّ: وحركت الياء لأنه لا تكون الواو ثانية وقبلها ياء ساكنة». لقد فسر هذه الإضافة بما حدث من تغيير في صيغة الكلمة حيث أبدلت الياء واواً نزوعاً إلى اجتناب النقل الناتج عن تتابع أربع ياءات في الاسم الواحد؛ لأن العرب كرهوا أن توالى في الاسم أربع ياءات فحذفوا الياء الزائدة الموجودة في مثل، سليم وتقيف، حيث استقلوا هذه الياءات فأبدلوا الواو من الياء^(١).

٢ - التعليل بالاستعمال:

ظل اهتمام الخليل منصباً على اقتفاء آثار المتكلمين العرب الأقحاح، ولذلك قصد بينات الحجاز وتهامة^(٢).

فأخذ علمه من أفواه تلك القبائل نزيلة هذه البوادي، فحفظ ودون ما يزيد عن عشرين رطلاً^(٣)، ثم جاء عمله التقعيدي، حيث استنتج كثيراً من قواعد العربية بناء على ما سمعه من الأعراب أو ممن شافهم من ذوي السلائق الحسنة، وهو بهذا الصنيع العلمي لا يختلف عما سنّه الوصفيون المحدثون، كما يقرر ماريو باي: «إن مجال بحث عالم اللغة الوصفي يتمثل حقيقة في حقل اللغات الحية حيث يمكن تزويد الباحث بأحد أبناء اللغة الذين يتكلمون بها، وهو الذي يُعرف فنياً باسم الراوي اللغوي: Informant {...} فهو لاء الرواة يمكن أن ينتقوا من بين من يحسنون تمثيل المستوى اللغوي المراد تحليله وتقعيده»^(٤).

(١) الكتاب، ج ٣، ص ٣٤٤.

(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ص ٥٥.

(٣) د. عبدالله بن حمد الخثران، مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ١٧٠.

(٤) ماريو باي، أسس علم اللغة ترجمة أحمد مختار، ط ٣، طبعة عالم الكتب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص ١٢٠.

ومن خلال تنقلاته بين البيئات العربية وقف الخليل على تباين لهجات الأعراب، ولاحظ خصائصها الاستخدامية، وسجل ما تتميز به كل لهجة من عادات قولية، وهو ما جعله يدرك أن لغات العرب تشترك وتختلف في ظواهر متنوعة، وبالتالي فلا يمكن تفضيل بعضها على بعض إلا ما كانت عيوبها فاشية.

وظل هذا المنحى - في نقل اللهجات - ديدنه ومبتغاه فما هو يجري في استخلاص القواعد وتقنينها على المأثورات المحكية والنسوج المستعملة والمتداولة دون النظر إلى الكثرة أو القلة من مستخدميها، وفي تخريجه لأنظمة الاستعمال اللغوي أدى به إلى التركيز على أهمية اللهجات ومن جهة أخرى لم يغفل المواقع اللسانية للعربية، تلك الممتدة شمالاً وجنوباً بأقاصي صحاري بلاد العرب. ومثل هذا الفعل الجاد الذي سار عليه الخليل لا يبتعد عن منهج البحث التحليلي لعلماء اللغة الوصفيين الذين أسسوا علم اللغة الجغرافي الذي جعل دراسة اللهجات من أجل أعماله التطبيقية^(١).

لقد عاش الخليل رداً من الزمن منتقلاً بين البوادي متعرفاً إلى لهجات الأقاليم، فكان متقبلاً للهجاتهم مسلماً لمنطوقهم، ولنا في موقعه العلمي الهادئ المتزن من بعض القراءات الشاذة خير دليل على سعة ذلك العقل المتبصر الذي تلمس لتلك القراءات أوجهاً صحيحة، راداً إياها إلى ما اختلف من منطوق الناس، فما هو يخرج قراءة عاصم الجحدري: (وَمَنْ تَقَنَّتْ لِلَّهِ...) ^(٢) بالناء، على تحمیل (مَنْ) معنی (التي) ^(٣)، ويفضل قراءة الأعراب: (يا جبالُ أَوْبي مَعَهُ والطير) ^(٤) برفع الطير ^(٥).

(١) المصدر السابق، ص ٦٤.

(٢) سورة الأحزاب، الآية ٣١.

(٣) الكتاب ج ٢، ص ١١٥، وينظر: تفسير أبي حيان المسمى بالبحر، ج ٧، ص ٢٢٨.

(٤) سورة سبأ، الآية ١٠.

(٥) الكتاب، ج ٢، ص ١٨٧.

ولعل خير ما يؤكد هذه الروح العلمية المتسامحة من معاودة تلميذه- سيبويه- ومراجعتة له في كثير من القضايا المستعصية، من ذلك أن سيبويه سأله عن وجه من وجوه الحركة الإعرابية في قوله تعالى: «ثُمَّ لَنُنزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمَ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَانِ عُنْيًا»^(١) فقال: القياس: النصب^(٢).

وهكذا ترى هذا الإبداع الفذ في تخريج هذه المسائل النحوية وتقف على هذه العبقرية المتميزة الخالدة التي كانت الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح القياس فيه كما جاء على لسان أبي سعيد السيرافي^(٣)، فقد كان الخليل قليلاً ما يردّ قراءة أو يرفضها، وهو أعلم الناس بلهجات العرب، بل يخضع أقيسته لها ويعدّها صحيحة غير مأبية في بيئة الاستعمال والقياس^(٤).

هذا هو المنهج الأول الصحيح الذي أسسه الخليل وهو أن يخضع القياس للكلام المنطوق وليس العكس كما شدد النحاة من بعده فحدوا عن ذلك المنهج السديد.

ومن ضروب ذلك المنهج السديد قياسه قول العرب: «ولا سيما زيدٌ»^(٥) على قراءة روية بن العجاج، «إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةٌ»^(٦) بالرفع^(٧)، فيحتج بها كاحتجاجة لجواز الرفع فيما ينتصب في المعرفة كقولهم:

(١) سورة مريم، الآية ٦٩، القراءة المشهورة.

(٢) الكتاب، ج ٢، ص ٣٩٩.

(٣) أبو سعيد السيرافي، أخبار النحويين البصريين، تحقيق محمد الزيني، وعبدالمعظم خفاجة، طبعة الحلبي، ١٩٥٥م، ص ٣٠.

(٤) د. أحمد محمود الصغير، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، ط ١، طبعة دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٩٩٩م، ص ١١٠ وما بعدها.

(٥) لهذا التركيب وجوه إعرابية مختلفة ينظر: عباس حسن، النحو الوافي طبعة دار المعارف، ج ١، ص ٤٠١.

(٦) سورة البقرة، الآية ٢٦.

(٧) الكتاب، ج ٢، ص ٢٨٦.

«هذا عبدُ الله منطلقٌ»^(١) بحرف ابن مسعود: «وهذا بعلِي شيخٌ»^(٢).
هكذا كان الخليل، وقد أجمع دارسو العربية على أن هذا الرجل كان أعظم
عالم في درس العربية، حيث تميز بتمسكه بما ورد عن العرب دون تطبيق
معايير عرف بها عصره، وقد حرص على قبولها خاضعاً لمقاييسه لأصولها
مصححاً أدواته وفق ما تقتضيه قواعدها.

٣- التعليل بالعامل:

في أول صفحة من أول أثر نحوي مدون يقترن الإعراب وعلاماته بما
سماه سيبويه: «العامل» وتتجلى آثاره في تعاقب علامات الإعراب على آخر
الكلمة المعربة، ومن ثمة لا يمكن التفريق بينهما، فالعامل يقتضي أثراً هو
الإعراب، والإعراب يقتضي مؤثراً هو العامل، وعلى هذا يمكن القول مع فايس
{J- Weiss} بأن «العامل والإعراب هما المحور الذي تدور حوله نظرية النحو
عند نحاة العرب»^(٣).

وانفق المحققون من نحاة العربية على أن محدث الإعراب أو مقتضى
الإعراب هو العامل وهو: «كل ما رفع أو جر أو نصب أو جزم»^(٤).
والذي نقصده بأول أثر نحوي مدون كتاب سيبويه الذي وطد فيه نظرية
العامل التي استوحاها من فكر الخليل وهي أهم مقولة نحوية اهتدى إليها هذا
العالم الجليل، وتتعلق بنظم الكلام، ومرتبطة بطبيعة العربية، وهي أنها لغة
معربة، ولا يراد بالعامل ذلك الذي أحدث بذاته حركة الإعراب، وإنما هو عامل
اقتراني أي لما اقترن هذا اللفظ أو ما في حكمه أعطى اللفظ المقترن به حكماً

(١) المصدر السابق، ص ٨٣.

(٢) سورة هود، الآية ٧٢.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ج ٣، ص ٥٤٤.

(٤) ابن الخشاب، المترجل، تحقيق علي حيدر، دمشق، ١٩٧٢م، ص ١٢.

إعرابياً ولولا أنها كانت موضع مغالطة من قبل من تصدوا لنقد الأسس التي أقام عليها بناءه للنحو، ومع ذلك فإن نظرية العامل هي من أهم ما اكتشف الخليل، وأهميتها تمتد إلى إيجاد تفسير شامل وتحديد دقيق لمواضع عناصر العبارة بعضها ببعض^(١).

واستدعى سيبويه إلى التعريف بمجاري هذا العامل وأحصى عدده قائلاً: «إنما ذكرت لك ثمانية مجارٍ لأفرق بين ما يدخله ضرب من هذه الأربعة لما يحدث فيه العامل - وليس شيء منها إلا وهو يزول عنه - وبين ما يبني عليه الحرف بناءً لا يزول عنه لغير شيء أحدث ذلك فيه من العوامل التي لكل عامل منها ضربٌ من اللفظ في الحرف، وذلك الحرفُ حرفُ الإعراب»^(٢).

ولاشك في أن هذا التفصيل مما فهمه سيبويه من تنظير الخليل، ويمكن الرجوع في هذه القضية إلى ما حصله من نماذج تطبيقية^(٣)، وقد اخترت من تلك النماذج واحدة أوردها تحت باب: «ما ينتصب لأنه ليس من اسم قبله ولا هو هو»^(٤)، ومثال ذلك قولهم: هذا درهمٌ سواء. كأنهم قالوا: هذا درهمٌ استواء فهذا تمثيل وإن لم يتكلم به. قال عز وجل: «في أربعة أيام سواءً للسائلين»^(٥) غير أن أناساً قرأوها بالرفع: (سواءً) وبالجر (سواءً)^(٦)، قال الخليل معللاً: جعلوها

(١) فندريس: اللغة، ترجمة الدواخلي ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠م، ص ٧٧.

(٢) الكتاب، ج ١، ص ١٣.

(٣) الكتاب، ج ٢، ص ١١٠-١١٤-١١٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١١٨.

(٥) سورة فصلت، الآية ١٠.

(٦) قرأ الجمهور (سواءً) بالنصب على الحالية، وقرأ أبو جعفر (سواءً) بالرفع أي على تأويل حذف المبتدأ، وقرأ الحسن وغيره (سواءً) بالخفض نعتاً لأربعة أيام، ينظر: البحر المحيط، ج ٧، ص ٤٨٦.

بمنزلة مستويات^(١) نعت لأيام، وقد نصبت على الحالية ورفعت على حذف المبتدأ. ويمكن الرجوع في هذا التوجيه الظاهري إلى مسألة العمل في الجملة الاسمية حيث يرتفع الخبر لأنه مبني على المبتدأ^(٢)، وقد ضاهى هذا التوجيه الظاهري على شاكلة ما يقع في الجملة الفعلية حيث يعمل الفعل في الاسم الذي بعده وهو الفاعل، يقول سيبويه: «إن المبتدأ يعمل فيما بعده كعمل الفعل فيما يكون بعده»^(٣). وهكذا ترى كيف ربط الخليل بين الأثر الإعرابي والعامل الإعرابي الذي هو قرين القياس ونتيجة العلة.

والذي يولي كتاب سيبويه فضل نظر سوف يجد أن كثيراً ممن روى عنهم سيبويه أنهم كانوا يستخدمون ضروباً من العلل تختلف من حيث السهولة والإغراق^(٤). ولعل أكثر العلماء تصدراً - دون منازع - في كتاب سيبويه أستاذه الخليل الذي بدأ عمله فيما صنفه تلميذه.

ومجمل ما ذكرنا في هذا الضرب من التعليل بالعامل يمكن تبويبه على أساس التحليل الشكلي للظواهر النحوية خاصة، فقد فسر كثيراً من تلك الضروب على ضوء صيغها التركيبية كما تجلى في تركيب الجملة الاسمية، فقد صنف الأول مبتدأ والثاني خبراً، رغم أنهما يشتركان في إحداث المعنى، ولكن فهمه للعلامة الإعرابية الظاهرة على أواخر اللفظة جعله يطرح المعنى عند تبرير تلك التراكيب.

(١) الكتاب، ج ٢، ص ١١٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٨٦، ويقصد أنه لا يوجد إلا عامل واحد في الجملة الاسمية بينما أجاز الكوفيون اجتماع عاملين على عامل واحد. ينظر: الأنباري، الإنصاف في مسائل الخلاف، ج ١، ص ٤٤.

(٤) د. مازن المبارك، العلة النحوية نشأتها وتطورها، ص ٥١ وما بعدها.

ويعد هذا التحليل الشكلي أهم مبدأ من مبادئ النحو الوصفي^(١)، وقد تلقفه أصحاب المذهب التوزيعي خاصة. وقد عالج الخليل عدة قضايا لغوية من مثل: التذكير والتأنيث، والتعريف، والعلاقة بين الفعل والفاعل والمبتدأ والخبر على أساس الأشكال والصيغ وليس على أساس الدلالات والمعاني مما يدل على سلامة منهجه وصحة القواعد التي أقام عليها مبادئ الدرس اللغوي، ولربما اقتبس بعض اللسانيين بعضاً منها.

وبعد هذه المقاربة العلمية المنهجية نخلص إلى القول:

- إن الخليل قد قدر موضوع العلة وسن قوانينها، فكان يقدر لكل تركيب أو عبارة تقتضي التوضيح والتفسير مبرراً يسهل فحواها.
 - لجأ إلى تقديم العوامل ليوضح ما استصعب فهمه.
 - جمع بين التعليل الفطري والتعليل المؤسس على التجريد.
 - يقترب منهج الخليل في دراسته للعربية من بعض خطوات المناهج اللسانية الحديثة وأقربها المنهج التوزيعي.
 - يرجع للخليل الفضل الأكبر في الاهتمام إلى بعض مفاتيح البحث اللغوي العربي، ويعود ذلك إلى عقيدته الراسخة وسليقته العربية السليمة ومخالطته للأعراب في بيئاتهم.
- ومجمع القول: إن أصالة العلة عند الخليل كانت في السياق الطبيعي للتطور العلمي للعربية والتأثر بالثقافة الدينية التي كان المجتمع العربي يزخر بها، فأسس منهجه من واقع البيئة العربية لا من خارجها. فلا ضير أن يتلمسها الدارسون منها.

(١) أسس علم اللغة لماريو باي، ص ٥٤.